

الأنا والآخر في الخطاب السردي الجزائري

رواية " مأوى جان دولان " لعمر بن قينة نموذجاً

د/ الشريف مربيحي

جامعة الجزائر

تقع الرواية في 156 صفحة من الحجم المتوسط، موزعة على ثلاثة عشر فصلاً غير معنون، يرصد الكاتب خلالها تصرفات وسلوك و نفسيات مجموعة من الشباب الجزائري في العاصمة الفرنسية باريس، يجمعهم مأوى "جان دولان" كما يجمع بينهم السفر من أجل الدراسة ، ولكن تفرق بينهم الأهواء والميول والأهداف الحقيقية التي سافر من أجلها كل فرد من أفراد المجموعة.

وقد أراد المؤلف من وراء هذه الرواية تشريح ظاهرة التفاعل الحضاري واللقاء بالآخر ووعيه، انطلاقاً من وعي الذات، وما يترتب عن ذلك من تمزق وعدم توازن والسقوط في وحل التفسخ والاستلاب لعدم توفره على ما يضمن له الحصانة ضد الذوبان، والحفاظ على الهوية، والبقاء في وضع طبيعي داخل وسط غريب عنه.

كما يريد الدكتور عمر بن قينة بهذه الرواية أن يجسد ظاهرة الانحراف والتشويه اللذين تعرضت لهما فكرة نبيلة في أساسها وهي طلب العلم، والاستفادة من تجارب الآخرين في مجال البحث العلمي بسبب الإهمال والمحسوبة وسوء التقدير، وعدم الشعور بالمسؤولية، وهي الجريمة التي تشترك فيها أطراف عديدة في مقدمها الجهاز الإداري فضلاً عن بعض الطلبة وهم الشريحة التي يفترض فيها أن تكون واعية بمصيرها وأكثر شعوراً بمسؤوليتها.

كما يحاول المؤلف أن يصور معاناة المغتربين في فرنسا، وما يكابده الأجنبي من الضياع و التشرذم والعنصرية المقيتة في قلب باريس، كحادثة مقتل المواطن الإفريقي

على قارعة الطريق و مرور الحادث في صمت وبسرعة، وهو ما يرمز إلى هذه اللامبالاة التي يواجه بها الأجنبي في عاصمة الحرية والسلام والأخوة .

هذه هي الخطوط العامة للقضايا التي يطرحها الروائي في "مأوى جان دولان" من خلال مجموعة من الشخصيات الروائية.

أ - وأول شخصية نعرف عليها في الرواية هي شخصية أبو الأرباح : يقدمها المؤلف بطريقتين : عن طريق ما ترويهِ عن نفسها ، وعن طريق المونولوج، لقد حصل أبو الأرباح على البكالوريا في الجزائر فأقام أهله عرسا، ومع أنه لم يكن متفوقا إلا أنه حصل على منحة للدراسة بفرنسا على حساب الدولة بوساطة أحد أقاربه، قضى في باريس عشر سنوات نال خلالها الليسانس ودكتوراه الطور الثالث بمقابل مادي، أتقن اللغة الفرنسية، وعرف شيئا من الألمانية والإيطالية بوساطة عشيقاته براى وكاترين وستيفان، وفي المقابل نسي العربية ومقتها ورمائها بالجمود والعقم، وهو ما يرمز إلى للتكر والانسلاخ عن الذات، بنى ثروة خلال هذه المدة وعرف السبيل، التي تحاشى بها أداء الخدمة الوطنية، وهو ما يرمز إلى عدم الشعور بالمسؤولية تجاه الوطن.

عاد إلى الجزائر ليلتحق بالجامعة التي لم يمكث بها سوى ثلاث سنوات قضاهما في التهرب من التدريس (شهر في السنة)، ولم يلبث أن عاد إلى باريس ممنوحا بطرق ملتوية ليس بغرض الدراسة، ولكن لمآرب أخرى، إذ كان همه الوحيد جمع ثروة وإقامة تجارة ومن أجل ذلك تحول إلى تاجر عملة يشتري الفرنك بالدينار، وهو ما يرمز إلى نموذج تخريب الاقتصاد الوطني.

فالربح على حساب القيم والمبادئ، و على حساب مصلحة الوطن كان هدفه الوحيد، و من هنا جاءت التسمية أبو الأرباح التي تحمل هذه الدلالة، وليس هذا فحسب، ولكن إلى جانب هذه الصفات جمع أبو الأرباح رذائل نفسية أخرى هي الحسد والأنانية والاعتياب والنميمة والإيقاع بين الناس.

إن أبو الأرباح هو النموذج للشخصية الانتهازية الوصلية المستلبة، يقول عن نفسه: "ندمت على شيء واحد هو أنني عدت إلى الوطن وليس في ذراعي فرنسية حتى العودة كنت مجبرا عليها بمختلف العوامل الذاتية إضافة إلى العوامل الفرنسية والجزائرية، ربما كان التفريط في فرنسية زوجة أحملها إلى الجزائر مع الشهادة هو ما صار يترسب في ذاكرتي أيضا عن الوفاء الذي يندر لديها، عن التنكر الذي تدمنه". ص 12.

ب عيشه: وحول شخصية أبو الأرباح تتمحور شخصيات أخرى تدور في فلكه أهمها، في الرواية شخصية عيشة التي تمثل نموذجا للفتاة المستهترمة بجميع القيم والمبادئ الأخلاقية و الأعراف و التقاليد الاجتماعية التي تربت في كنفها، إنها نموذج آخر للشخصية المستلبة التي لم تستطع الصمود أمام رياح المناخ الباريسي بل لم تحاول إطلاقا الحفاظ عل توازنها فجرفها التيار بسهولة، وانغمست في الشهوات الرخيصة، همها الوحيد أن تأخذ حظها من ملذات باريس ماعدا العلم الذي ذهبت من أجله على نفقة الدولة.

إنها تعيش أيامها في لذة وخدر غير مبالية بشيء، ومن هنا اختار لها المؤلف اسم عيشة، من العيش بالمعنى الدارج، فكان اسمها عاكسا لتصرفاتها ونفسياتها ونمط تفكيرها.

فبعيشة المتعودة على أجواء الليالي الحمراء في الجزائر منذ أن كانت طالبة في الجامعة لم تجد صعوبة في اقتحام هذا المحيط في باريس فهي تصادق الفرنسيين، وتركب أفخم السيارات، وتشرب وتتأنق في الملابس، وهذه هي القيم التي تمثلها باريس في نظرها، وقد ساعدها جمالها في أن يكون لها عشاق ومغرمون.

هكذا فهمت عيشة حياة التحضر، وهكذا فهمت باريس عاصمة الجن والملائكة عيشة استيفان كما تسمى في باريس هي الوجه الآخر لـ " أبو الأرباح"، فقد زورت علاماتها في الامتحان بمساعدة مدير الدراسات لتظفر بمنحة، ولذلك

أكرمه بزجاجتي ويسكي في أول زيارة لها للجزائر، ومن هنا يدافع بوالأرباح عن تصرفاتها حين احتج أحد جيرانها في المأوى عن ذلك إذ خاطبه قائلاً: "هي حرة يا هذا ماذا تريد لها؟ أتريد أن تلجمها بقوانين الجزائر وتقاليدها أنت في باريس عش حياتها أو ارحل"، فالحرية في نظر "أبو الأرباح" كما في نظر عيشة استيفان هي التعهر والسقوط في وحل الشهوات البهيمية.

إن عيشة استيفان مثل أبي الأرباح لا يعانيان أية عقدة، ولا يشعران بحرج وهما يعيشان حياتهما الداعرة، يل نجد لديهما انسجاماً نفسياً إلى درجة تثير الدهشة والاستغراب، فلا وخز ضمير لديهما، ولا تأنيب ولا عودة وعي بين الفينة والأخرى ولا إحساس بالذنب يؤرقهما.

ج- زخروفة: وفي هذا السياق تأتي شخصية زخروفة التي فهمت هي الأخرى الحرية والديمقراطية على أنها العري، تقول معلقة على مشهد مخل بالحياء استطابته: "هذه هي الحرية حقاً هذه هي الديمقراطية، تتعري ولا أحد يتدخل في حياتك الشخصية" ص40، وتصل بها الجرأة إلى أنها تسأل إحدى بائعات الهوى عن الثمن الذي تأخذه وتدخل معها في حوار ساخن، ص 40-41. وتعلق على إحساس امرأة وهي تخاطب زوجها ممتعة من المشاهد المزرية: "ما الذي أتى بك إذا إلى هنا يا متخلفة؟ اذهبي لباديتك فقد خلقت للظلام لا للحرية" ص41، ونراها أيضاً تعلق على كلام امرأة تصرح للتلفزيون بقولها: "أنا أحب القيل أبحث عنها بشكل شره. حتى مع الكلاب، أنا جنس، أعشق العلاقة غير السوية أتعلق بالتافهين"، تعلق بقولها: "تحيا الصراحة الفرنسية، تحيا الحرية الفرنسية، وديمقراطية الفرنسيين".

فزخروفة كما تقدمها الرواية إذن فتاة تافهة، لم تتعلق من باريس سوى برذائلها وتعطيها تفسيرها الخاص، وهي بذلك فتاة مكبوتة ذهبت لتفرغ هذه الشحنة من الكبت وتغرق في حياة بهيمية، وتقيم علاقات بأشخاص عديدين، توزع العواطف والمشاعر مجاناً، الوفاء والخيانة الساخرة عندها وجهان من قطعة الفرنك التي نحرص

على ادخارها فهي تخطط لمشروع شراء سيارة في النهاية تعود بها إلى بلدها، لذلك يغريها رصيد صديقها إبراهيم في البنك فتطمع فيه، وعندما تخيب تخيك له شركا.

إلى جانب بوالأرباح و عيشة استيفان وزخروفة تقف شخصيات أخرى أقل أهمية في الرواية منها سلوى و ركبة و كريمة وهرهارة، كما نجد شخصية "أبو السعود" وسعيد، وكلها شخصيات باهتة لا نعرف عنها شيئا سوى أنها تسير في فلك أبي الأرباح وعيشة استيفان، فهي لا ترى من الحضارة الغربية إلا القشور، ولا تثبت سوى بالنفايات، يلمح الكاتب إلى سلوك هذه الشخصيات تلميحا من غير الدخول في تفاصيل، و لكن هذا التلميح يجعلنا نلمس طبيعة هذه الشخصيات، فركبة تقيل كلبها الاسود في هو المأوى وسلوى تتحدث عن مشروع لشراء كلب ينبغي أن يكون أكثر سوادا و أضخم (ص30) وأبو السعود يتحدث عن نفسه فيقول: "أنا سكير مهرج نصاب كذاب محتال منافق" ص 53، و يوجه الكلام إلى إحداهن قائلا: "قولي حقير، قولي هذا عني، أنا اعرفه، هذا سر نجاحي" ص 53.

وعلى العموم فإن ما تشترك فيه هذه الشخصيات هو أن جميع أمكنة الحنان والعطف والذاكرة تهدم لديها، وجميع هؤلاء الشخصوس مهددون بالضياغ أو الذوبان في المجتمع الفرنسي، فعيشة تدخل المستشفى، وزخروفة وإبراهيم يدخلان السجن. بالإضافة إلى أنها تحمل أسماء قدرية، ترمز إلى حقيقة سلوك الشخصية وتفكيرها ونفسيها، وقد اختارها المؤلف على سبيل التضاد ازدراء ها وسخرية منها، فبالإضافة إلى أبي الأرباح وعيشة نجد سلوى التي جاءت إلى باريس تحت غطاء الدراسة من أجل التسلي والتنفيس عن مختلف أنواع الكبت، وكريمة التي كان كرمها مع سعيد من نوع خاص، وسعيد الذي يرى سعادته في التحرر من القيود الأخلاقية، والتحلل من عادات مجتمعه الجزائري، فيرتقي في أحضان كريمة مرتبطا معها بعلاقة آثمة، ويسكر حتى الثمالة ويرقص حتى الجنون، وأبو السعود الذي يظهر في قمة السعادة، يجد لذة في تغيير النساء مثلما يغير جوارب حذائه، وفي إشباع الغريرة وهلم جرا.

وهذه الشخصيات المستلبة فكريا ونفسيا واجتماعيا وعقائديا لم تكن لتحظى برضا المؤلف، ولذلك راح يلصق بها مختلف الرذائل والآثام، وجعلها تسقط في نهاية الرواية لتبلغ المأساة أقصاها بالنسبة إليها.

و في مقابل هذه المجموعة نلتقي بمجموعة أخرى من الشخصيات القليلة ولكنها أثيرة عند المؤلف بسلوكها وتفكيرها، وتختلف عن الأولى حتى في مصيرها- كما سنرى- إنها شخصيات تعكس الوجه الآخر للجزائري المحافظ على قيمه العربية الإسلامية، وعلى عاداته وتقاليده، المحصن ضد أي تيار وضد أي إغراء بما يجعله بمنأى عن أي خطر للذوبان أو الضياع أو الفساد أو التفسخ، غير أنها تعرف الحيرة وتعرض للمحن والمآسي بصورة أخرى.

وفي مقدم هذه الشخصيات عبد الله: الذي يقدمه المؤلف من خلال حديثه عن نفسه ومن خلال الحوار، فمن خلال الحوار الذي يجري بين عبد الله وموظف القنصلية يظهر عبد الله رجلا له غيرة على بلده ذا وعي حقيقي بالمحيط الذي يعيش فيه، و تتجلى هذه الروح في وقوفه في وجه الموظف منتقدا سلوكه مع امرأة مغتربة: " من يكون إلى جانبها في الغربة إن لم تكونوا أنتم.. أنتم العون في حل المشاكل وسط محيط جليدي عنصري" ص16، فعبد الله مثلما نرى يدرك الوجه الآخر لفرنسا العنصرية، ويدرك خلو المحيط الذي يعيش فيه من كل روح إنسانية. بما تمثله من عطف ومحبة وأخوة. و يرى أن من واجبه التدخل في هذه المسألة بدافع الغيرة و الإحساس بالمسؤولية: " بل من واجبي التدخل، هذه قنصلية وطني وليست شركتك أو دكانك" ص 16.

إن عبد الله كما يقدمه المؤلف شخصية متوازنة محافظة شاعرة بمسؤوليتها تجاه الوطن الذي يدرس على حسابه، فهو ينتقد تقاعس موظفي القنصلية في واجباتهم، وإهمالهم لمسؤولياتهم تجاه الجالية الجزائرية المهاجرة، كما ينتقد سلوك زملائه الطلبة وتصرفاتهم المسيئة إليهم و المضرة بمصلحة الوطن، فهو يرد على أبي الأرباح الذي

يشترى الفرنك بالدينار: " هذا كثير.. هذا ظلم للدينار، ونقص في الوطنية أيضا اسمح لي -" ص 36.

عبد الله مهتم بدراسته يعد أطروحته، يجد لذة في البحث والتنقيب يشعر بحساسية خاصة تجاه فرنسا، ويقرر نقل رصيده المالي إلى بنك آخر في أي بلد، كما يقرر في النهاية ألا يشتري شيئا من سلع فرنسا ومنتجاتها الصناعية. وقد حرص المؤلف على تقديم هذه الشخصية على أنها متوازنة فعبد الله يسير بخطى وثيدة ولكنها سليمة من أجل بلوغ أهدافه في الحياة، وإذا كان أبو الأرباح يركب الميترو السريع في تنقلاته فإن عبد الله يركب الميترو العادي الذي يتوقف في كل محطة رمزا إلى استعجال الأول بلوغ الغاية في الحياة وحرص الثاني على السير خطوة خطوة.

ولكن عبد الله الشخصية الودودة المسالمة العطوفة على الآخرين المتضامنة معهم في وقت الشدة يصاب بالخشية في كل خطوة يخطوها في سبيل أي عمل إنساني، فهو يدخل في صراع مع موظف القنصلية، ولكنه يقرر الانسحاب، ويتم بقية كلامه في السلم، ويحاول مساعدة الطالبة التي سرقت منها منحتها ووثائقها فلا يجد التجاوب الكافي من زملائه، ويقحم نفسه في حديث مع صديق زميله الأخضر ثم ينسحب ويميع المناقشة، وينوي زيارة عيشة في المستشفى وزخرفة في السجن ثم لا يفعل حين لا يجد من يرافقه، وهكذا تبقى معظم أعماله الإنسانية مجرد نوايا لا تتحقق في الواقع، وبعبارة أخرى فهو شخصية سلبية اهترامية في مواقفها.

إن شخصية عبد الله التي حظيت برضى المؤلف لا تخلو هي الأخرى من انتهازية، فهو يقبل كرم عائشة رغم استيائه من سلوكها، و يقبل أن يركب معها السيارة رفقة عشاقها من الفرنسيين ليصل إلى مسكنه بأقل جهد وأقل تكلفة موهما إياهم بأنه قبل دعوتهم للسهر سويا، ولكنه عندما يقترب من مأوى جان دولان يدعي المرض، و يغادر السيارة إلى الغرفة.

وإذا كانت ذاكرة أبو الأرباح تبدو بلا طفولة إذ أنها تبدأ في حدود العشرين حين ينال البكالوريا وكذلك الحال بالنسبة للشخصيات الأخرى التي تدور في فلكه، والتي تظل بداياتها الأولى مغمورة وينعدم أي امتداد لبعدها الاجتماعي أو وضعها الطبقي بحيث نراها أشبه ما تكون بأشجار عديمة الجذور، وإذا كان هذا القطع فيه إشارة إلى الانقطاع عن كل ما يربط هذه الشخصيات بالوطن، وسرعة الانسلاخ مما يجعله مبررا إلى حد ما من الناحية الفنية، فإنه يبدو غير مبرر بالنسبة لشخصية عبد الله على الأقل تلك الشخصية الناجية المحافظة المرتبطة بالوطن المنكفئة على ذاتها .

بقي أن نشير إلى أن المؤلف يصدر كل فصل بمقدمة وصفية للمكان، وهذا الوصف يخدم الجانب الفني دوماً:

— فلاسنتي ووكالة رونو رمز للمفارقة الصارخة بين القيد والحرية، وتعتقد حركة المرور في شوارع باريس ترمز لحيرة عبد الله، وتعتقد الحياة بالنسبة إليه، وتوحي بغرته وعزلته. وإحساسه بالضيق، وشمس باريس العذبة الجميلة ذات الإطلالة الخادعة ترمز دوماً إلى هذه الثنائية التي تطيع حياة باريس والتي يتجاوزها جمال المظهر وفساد المخبر.

كما أن قيام مأوى جان دولان بين وكالة رونو لعرض السيارات الأنيقة وبين سجن لاسانتي - و إن لم يكن في الواقع يحمل دلالة ما أو قصداً معيناً إلا أنه في الرواية يرمز إلى التناقض و المفارقة العجيبة بين صورة الادعاء و طبيعة الواقع، مفارقة القيد في بلد الحرية والانطلاق، كما يوحي بالتجاذب الذي سيصير إليه نزلاء المأوى، وإلى المصير الذي ينتظرهم، إن مثل هذه الإشارات التي جاءت في سياق وصف المكان توحي بالتباين في الاتجاه والمصير وقدرية الجزائريين في باريس، الذين تتوزعهم مأساة السجن و مأساة الانحراف وراء سراب المظهر البراق .

و الغريب أن الجزائري في كل الحالات لا يأبه بهذا الواقع ولا يدركه إلا بعد أن يصطدم به، لأن المظاهر البراقة الأخرى من وجه باريس المليء بالمساحيق استحوذت على اهتمامه، وحجبت عن عينيه بشاعة الباطن .

و معنى ذلك أن اللقاء بالأحر ظل سطحيًا بالنسبة للشخصيات الروائية التي لم
تستطع الغوص في أعماق الطرف الآخر ~~لأنه~~ ~~بفرض~~ اكتشافه.
فباريس ليست الانطلاق والحرية والمتعة الحسية فحسب، و لكنها أيضا لاسيني
الذي لم يكتشفه الجزائريون إلا بعد أن اقتيد إليه زميلهم إبراهيم وزميلتهم زخروفة
ذات صباح، ومأساة التشرد والمصير المؤسف الذي آلت إليه عيشة التي دخلت
المستشفى.

